سينمائيو الحرية
في توثيق للثورات الشعبـــية

ضـاوية خلـيفة - الجزائر

يقال إن كل شعب يتأقلم و طبيعة المجتمع الذي يحيا و يعيش فيه، ويخوض صراعاته اليومية والتاريخية بالوسائل المتجددة عبر الزمن وعبر تجربة المجموعة في التاريخ. فالمتغيرات غير ثابتة و كذلك الأساليب. والمتأمل في عصر الحديث يرى أن من الأسلحة التي بات يحارب بها أبناء الألفية الجديدة، التكنولوجيات الحديثة التي قالت كلمتها و أثبتت جدارتها في أكثر من مجال، فكانت الشاهد المستنطق في كل حين و مرة على ما يحدث من انتفاضات، احتجاجات و ثورات شعبية في عز الربيع الذي أتى هذا العام متقلبا على حين غرة، فبالأمس كانت الذاكرة الحية للإنسان الشاهد الوحيد على أقوال صاحبها و أفعال غيره، بينما يستنجد اليوم العبد الضعيف بالتكنولوجيات الحديثة و المتطورة كدليل على صحة أقواله على ما يفعل غيره، وبالتالي كتابة التاريخ اليوم تخضع لتوثيق حديث غير الذي عهدناه سابقا، إذ يتم باستعمال الهواتف المزودة بأحدث التقنيات والكاميرات التي كانت للثورات بالمرصاد منذ شرارتها الأولى، فجمعت هتاف الثائر و شهدت على حديث المسجون، الهارب و الغائب، و رصدت ردة فعل المتفرج و المشاهد، وصنعت الفارق بين المؤيد و المعارض، و غيرت مسار السينما العربية بالداخل و الخارج، فكل يوم يأتي بجديده، بإيجابه و سلبه، و في كثرة السؤال يغيب الجواب، و بعد مضي أزيد من عام على اندلاع ثورات الربيع العربي نتوه بين السؤال و السؤال، بحثا دائما عن الجواب ومن الأسئلة التي تفرض نفسها اليوم : هل كان المخرج العربي في موعده لتوثيق و تأريخ حاضر أمته و هموم شعبه أم ترك الكلمة للشباب و الهواة ؟ كمخرج هل وثق لأحداث الربيع العربي أم احتفظ بصفة و صيغة المواطنة ؟ ما أنتجه لحد الآن من أفلام هل هي ردة فعل عفوية أم رغبة و إرادة قوية في التعبير عن حلم التغيير و بحث الشعوب عن الحرية ؟ كيف نستفيد من توثيق ثورات الربيع العربي و فيما تخدمنا ؟ وهل الاهتمام بالثورات حالة فرضها الواقع معرضة للزوال أم أنها بداية لرؤية سينمائية جديدة و فنية تقوم أساسا على ما هو واقع ؟ و كيف يمكن للمخرج

غدا التمييز بين ما هو موجود على الساحة من وثائق سمعبصرية و بين ما يحتاجه لبناء صورة فنية عن شهداء الثورات الشعبية ؟

توثيق الثورات لمستقبل سينمائي معلوم الهوية

لما يفتح النقاش و يثار موضوع كهذا نجد أن الآراء متقاربة جدا ربما بحكم الماضي، الحاضر والمستقبل المشترك لشعوب البلاد العربية التي تعيش اليوم على وقع الثورات والانتفاضات الشعبية، وباعتبار أن السينما المصرية مدرسة قائمة بحد ذاتها و رائدة عربيا، وبحكم أن مصر شملها التغيير أيضا بعد تونس، لا بد لنا أن نتساءل عن مدى اهتمام و إقدام سينمائيو مصر هواة و محترفين بتوثيق ما حدث منذ تاريخ ٢٥ يناير و ما يحدث لحد الآن في عديد المدن المصرية، والإجابة عن هذا السؤال جرتنا إلى طرح أسئلة أخرى لعلنا نجد لها جوابا عند الإعلامي و الناقد المصري أشرف نهاد، الذي أكد في البداية أن التوثيق للثورة و لكل ما كان يحدث في الميدان من حركات احتجاجية بدأ منذ اليوم الأولى، حيث واكبت كاميرا العام و الخاص يوميات الثورة، التي تأججت بل وصلت ذروتها لحد الآن باستخدام التكنولوجيات الحديثة كالموبايل، و هذا ما ساعد على توثيق اللقطات الحية و الصورة الحقيقية للأحداث فور وقوعها مما يعطي مادة قوية جدا للمخرجين و صناع الأفلام الوثائقية للعمل على هذه المادة و تصنيفها و البدء في رواية ما حدث سينمائيا في المستقبل القريب أو البعيد، كون السينما على وجه الخصوص و الفن عموما اليوم أصبح أرشيف معترف به و بما يقدمه و بتأثيره المباشر في نفسية الأفراد، ما دام به دليل الصوت و صدق الصورة و ما دام فيه مصداقية و تناول للحقائق التاريخية بكل موضوعية.

و بما أنه يتوجب أن يكون الطرح المستقبلي لواقع اليوم موضوعيا فهل يكفي الاعتماد على ما صوره الشباب و ما تبثه القنوات والفضائيات يوميا كمصدر لتأريخ تلك الوقائع و الأحداث في شكل أفلام سينمائية مستقبلا و العودة إليها كلما دعت الضرورة ؟ و عن هذا أجاب الناقد المصري "أشرف نهاد" قائلا: " أعتقد أن الاعتماد على ما تبثه القنوات التلفزيونية و ما يتم تداوله بشكل يومي و مستمر على الوسائط الاجتماعية، يمكن اعتباره إلى حد كبير مصدرا موضوعيا لتوثيق الأحداث يمكن العودة إليه مستقبلا، لكن في حال الاستعمال الجيد للمادة الموجودة بين أيديهم، و من

جهة أخرى هناك من المخرجين في مصر أو في تونس من صور ما حدث في ميادين التحرير بكاميراتهم لأرشيفهم الشخصي، لكن يبقى الأهم هو مشاركتهم في هذه الثورات و الاحتجاجات الشعبية فيكفي التزامهم بالمهنية في التصوير و التوثيق وهذا لم يقتصر على المخرجين بل أيضا بالنسبة للثوار و المحتجين.

و يصف الكثير من السينمائيين الأفلام التي صورت و أنتجت خلال الثورات الشعبية بالاستعجالية، لعدم تقيدها بشروط و مقاييس الصناعة السينمائية السليمة، و يبدو أن الناقد "أشرف نهاد" يتفق مع هذا الرأي، و يختلف معه في بعض التفاصيل، أو بالأحرى بتعقيب بسيط و توضيح مهم في نفس الوقت، إذ يرى أنه من الضروري أن نوثق لما حدث من جانب الثوار والمحتجين فلا نستطيع أن نصل إلى ما حدث في الجانب الآخر و عند الطرف الآخر أي عند الحكام السابقين الهاربين أو المخلوعين و بالتالي سنأخذ وقت طويل لتقديم وجهات النظر، لكن على الأقل يجب أن نوثق ما حدث أو نوثق لمرور وما فعله زعماء أو قادة و مفجري هذه الثورات العربية التي يقول أعداؤها أنها ثورات بلا عقل وبلا قادة وأنا أختلف معهم تماما، بل كان هناك قادة فضلوا التنحي بنبالة و بأخلاق الفرسان عن قيادة هذه الثورات، وفي المقابل يجب أن نقدم رموز هذه الاحتجاجات بشكل سينمائي راقي يليق بأبطالها مثل خالد سعيد في مصر و محمد بوعزيزي في تونس وغيرهما من الثائرين والثائرات ضد سياسة الظلم و طغيان الحكام.

توثيق للأحداث بعد التحليل و التعليل

اختلاف تحليلات السينمائيين من مخرجين، نقاد وأكاديميين للوضع والنظرية التي فرضها الواقع، لا يعني أن التقارب في الآراء احتمال غير وارد، إذ يرى المنتج والمخرج التونسي "رضا الباهي" أن التوثيق للثورات سواء بتونس أو بمصر بدأ منذ اليوم الأول للمظاهرات، على أيدي شباب استغل الفرصة، أخذ الكاميرا و بدأ يصور في تلك اللحظات الهامة و الحاسمة في تاريخ الأمة، ربما ليس بنية التوثيق، غير أن التوثيق في النهاية تحقق سواء بشكل إرادي أو غير إرادي، لكن الشيء الأصعب باعتقاد "رضا الباهي" كيف تدخل الأحداث الأخيرة للثورات والمتغيرات التي تحصل يوميا للوجدان لكي تظهر وتترجم في شكل سيناريوهات، أفلام و قصص نابعة من عمق الحقيقة، لا تعتمد فقط على نقل الحدث، و بالتالي يجب استغلال ذلك بشكل جيد، فني وعقلاني، وهذا يتطلب وقتا ومسافة بين الحدث و صياغة السيناريو

لينتج لنا مادة سينمائية، تكون قد أسهمت التكنولوجيات الحديثة وإلى حد كبير في تكوينها و بعث الصورة الفعلية لما يحدث على أرض الواقع، بعد أن أعطت التكنولوجيات المتطورة صدى بعيد للأحداث و فضحت الأنظمة الفاسدة، وعلى حد تعبير "رضا الباهي" فإنها سهلت المأمورية و شكلت الطرف الثاني لنجاح الثورات رغم أن هذه الأخيرة لما قامت و الشعوب، خرجت و انتفضت وقالت "كفاية" في مصر و "ديقاج" في تونس، أو "ارحل" في اليمن، لم تكن الكاميرا شغالة بل الشباب هو من عرض نفسه و صدره لكل أشكال العنف الممارسة.

و بما أن "رضا الباهي" من المخرجين التونسيين الكبار و المخضرمين، وبانتمائه لتونس و تواجده بها خلال فترة اندلاع ثورة الياسيمن أردنا أن نعرف إن كان استغل فرصة التوثيق و التأريخ لتلك المرحلة، على غرار أبناء جلدته و قام بتصوير جانب من الأحداث فقال أنه: "من غير المعقول بل حرام أن يرى السينمائي حيه يهتز و نظاما جثم على صدره يسقط و لا يوثق لما يراه من أحداث ستدخل التاريخ، أنا شخصيا لم أصور المظاهرات لكن جلب انتباهي موضوع أو واقعة حدثت قبل الثورة بيوم لما قاموا بفتح السجون، فهناك مساجين فروا و آخرين أجبروا على الخروج رغما عنهم، فانا أردت أن أفهم الموضوع و ماذا حصل، فأخذت الكاميرا و اتجهت لمدينة "سوسة" وصورت ساعات طويلة، وعملت لقاءات مع المساجين الذين هربوا أردت أن أعرف منها لماذا كانوا مسجونين، ولماذا هربوا، لكن عكس ما يفعله الكثير باتجاههم لعملية المونتاج بعد الانتهاء من التصوير، أنا قلت لا.. لابد أن أفهم أولا، فلم تكن نيتي أو رغبتي أن أجري وراء الأحداث، و لحد الآن لم أقم بعملية مونتاج للفيلم لأني أريد أن أحلل ذلك وأفهمه وأتعمق في تفاصيله، وهذه من المواضيع التي تهمني، هناك أسئلة عدة تنتظر الإجابة، لماذا هذا الفيلم و لم يصلح ؟ أما ما قام به الغير من تصوير و مونتاج للمادة المسجلة فهو يعتبر جهدا شخصيا، و أخذه لقاءات و مقابلات على السريع هي مبادرة طيبة يمكن جدا أن تستعمل وتستغل كوثيقة، لكن لا يمكن إدراجه ضمن قائمة الأفلام السينمائية أو تسميته شريطا وثائقيا، غير أنه يصلح كأرشيف يعود إليه من يحتاجه فيما بعد، فالإجماع اليوم والاهتمام قائم على ضرورة جمع أكبر قدر ممكن من الوثائقيات التي سيتم الاشتغال عليها مستقبلا، لأن السينما هي رسالة أولا و قبل كل شيء و أمانة وتقديم أفلام سينمائية عن ثورات الربيع العربي في هذا الوقت بالذات لا يزال مبكرا.

تقصير المخرج التونسي في التوثيق لأولى عناقيد الحرية

و بتونس نبقي الحديث عن توثيق الثورات العربية، وهذه المرة مع وجهة نظر التونسي وسيم القربي وهو ناقد سينمائي وأستاذ جامعي في علوم و تقنيات السمعي البصري والسينما حول الموضوع الرئيس، فقد أبدى ذات المتحدث أسفه لعدم استغلال المبدعين و المخرجين و كذا المنتجين التونسيين فرصة التأريخ للحظات الهامة والتاريخية لثورة الياسمين بكل تفاصيلها وجوانبها بعد أن شكلت الثورة التونسية أولى عناقيد الحرية و التغيير انتهت بإسقاط نظام الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي، فبالرغم من أن الشريط الوثائقي غير مُكلِف ماديا مقارنة بالفيلم الروائي الطويل يقول "القربي" لم نر انتاجات وثائقية قوية توثق للأحداث التي لا تتكرر، معتبرا أن ذلك تقصير من المبدع و المخرج التونسي، والتوثيق في تونس صار بطريقة أخرى يعني بسياق الهواة الذين شاركوا في المظاهرات ووضعوا ما تم تسجيله و تصويره على مواقع التواصل الاجتماعي ومنهم من أرسله لبعض القنوات الإخبارية لتبث ذلك الزخم.

و يواصل "وسيم القربي" حديثه بالقول أن هذه التسجيلات لا تكفي لتكون أرشيفا يعود إليه مؤرخو الصورة السينمائية أو المخرجين مستقبلا فنوعية الصورة لا تخدمهم كثيرا، إذ يمكن اعتباره تصويرا هاويا لتبقى تلك وثيقة للتاريخ و للمستقبل و للأجيال، فالفن لا ينفصل عن المجتمع بل يحيا به ويستخرج حكاياه من رحمه، ولا يتخلف عن الأحداث التي تدخل الشعوب التاريخ من واسع أبوابه لتصنع من بساطتهم أبطالا، و بالتالي كان من المفروض على المنتجين والمخرجين أن يأخذوا بزمام الأمور و يصوروا ما كان يحدث في الشارع اعتبارا من تاريخ ١٤ يناير لأن تلك الأحداث لا تتكرر، و الآن بعد مضي سنة على الثورة التونسية بدأ البعض يوثق لتلك الوقائع في شكل أفلام.

و في سياق ذي صلة أكد "وسيم القربي" أن الأفلام التي صورت من قبل، هي أفلام استعجالية مستشهدا في ذلك بفيلم مراد بن شيخ "لا خوف بعد اليوم"، وهو أول عمل بعد ثورة ١٤ يناير، اعتبره "القربي" فيلم استعجالي كون تطرقه للأحداث كان سطحيا نسيبا لكن يبقى وثيقة و توثيق لما جرى، ولأحداث من الثورة و نماذج حكت سينمائيا تلك اللحظات الهامة و التاريخية في حياة كل التونسيين و من جهة أخرى أشاد الناقد التونسي "وسيم القربي" بالدور الكبير و الاستخدام الذكي للتكنولوجيات

الحديثة بقوله أنها مهدت للثورة و ساهمت في إنجاحها، كالفايس بوك، تويتر و الهواتف النقالة المزودة بأحدث التجهيزات، التي استخدمت كأداة لنقل الواقع و التواصل مع الأخر و إيصال صدى الثورة خارج الحدود الإقليمية و الجغرافية، فضلا على أنها خلقت الحماسة لدى الغير للمشاركة في التظاهرات و تحديد الزمان و المكان لانطلاق المسيرات.

"مهرجان سوريا الحرة" غياب للمحترف و تألق للهاوي

بعد مرور أشهر على ثورة تونس، مصر، ليبيا و اليمن، انتقل زحف الثورات الشعبية إلى بلاد الشام، و التساؤل المفروض طرحه في هذه الحالة هل سار المخرج السوري على نفس خطى شباب أو مخرجي العالم العربي و أخذ يوثق ما يحدث في محيطه، و قد لقي سؤالنا هذا جوابا عند الناقد و الإعلامي السوري "محمد عبيدو" الذي أكد أن المخرجين السوريين تخلفوا عن الموعد و لم يحذ حذو زملاءهم و نظرائهم في العالم العربي فيما تعلق بالتوثيق السينمائي للثورة السورية و مواكبة تفاصيلها، و من الأسماء الفنية البارزة التي اعتبرها "عبيدو" خسارة للسينما السورية خاصة في هذا الوقت وتحدث عنها المخرج "عمر اميرلاي" الذي توفي مطلع العام المنصرم وهو أحد المبدعين و المثقفين المميزين بسوريا، الذين تشغلهم القضايا الوطنية الإنسانية، و يظهر ذلك في مواقفه السياسية و سينماه التسجيلية ببعدها النقدي الساخر و الأليم و رصدها الدقيق لتفاصيل الحياة السورية، بتعريتها و توثيقها للبؤس الكامن في ذاك المجتمع، عبر مقترحات بصرية وفي قوالب سينمائية ذات جمالية ببصمة متفردة في السينما العربية فالصحوة السينمائية لم تلحق لا بأبناء جيل المخرج السوري العالمي و المبدع في فيلم "الرسالة" مصطفى العقاد و لا بالجيل الذي أتى بعده.

فقد أكد "محمد عبيدو" للجزيرة الوثائقية أن حلم التغيير و البعد الفني الذي قد يستلهم من يوميات الثورات و يحول إلى أعمال ذات قيم فنية عالية في سينما الغد، ظل حبيس كاميرا هواتف بعض الشباب الناشطين و الهواة في ظل الغياب الرهيب لمخرجي سوريا، حيث قام الشباب الهاوي بضخ كم كبير من الصور التوثيقية التي كان لها دور بارز في نقل للعالم ما يحدث داخل الديار السورية، بالصوت و الصورة بصبغة توثيقية هدفها إيصال الحقيقة و التعبير عن الحق في التغيير، بكل سلمية و بدون دموية، و تمخض عن كل ذلك ألبوم الصور و الفيديوهات التي ترى اليوم عبر

شبكات التواصل الاجتماعي، و يتابعها ألاف المتصلين و المتواصلين عبر هذه الشبكة التي قربت المسافاتو كسرت الحدود الجغرافية، و جعلت الهم واحد في إطار زمني ومكاني متغير مرة في سوريا و مرة في تونس و مصر ...

و من الصور التي أفرزتها الشبكة العنكبوتية و استحضرها الناقد السوري "محمد عبيدو" مهرجان "سوريا الحرة"، الذي يعتبره أخر ما قدمته صور السينما السورية الوثائقية و إن كان في دورته الأولى المقامة على صفحات الانترنت، فالتظاهرة الافتراضية حملت شعار "السينما في ساحة الحرية" و عرفت مشاركة ١٢ فيلما، ٩ منها تناولت أحداث يوميات و دلالات الثورة السورية، و انتهى مهرجان "سوريا الحرة" الافتراضي بتتويج فيلم "حرية" و"قصة سوريا قصيرة" في هذه الدورة التي قد تنقل المهرجان من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي، لتناولهما و مزجهما بين الصور الحقيقية للأحداث و الاحتجاجات الواقعة بسوريا وبين الصور المتحركة ويعد هذا التعبير الفني أحد أشكال التوثيق الذي يتم حاليا بسوريا.

وفي معرض حديثه عرج "محمد عبيدو" على نقطة لا يختلف معه كثير من المختصين أو غير المختصين فيها، و المتعلقة بالتوثيق السينمائي للثورات سواء في سوريا أو في باقي الدول التي تعيش على وقع الانتفاضات والاحتجاجات، مؤكدا أن الخوض والتعمق في الميدان الحقيقي للتوثيق السينمائي العربي يقوم على أساس المقارنة بين نوعين من العمل السينمائي التسجيلي، الأول يكتفي بنقل الأحداث بكل تفاصيلها و فور وقوعها مباشرة من قلب الحدث، وأهمية هذا العمل تكون في حاضره أي وقت حدوثه لأنه بعد مرور وقت قصير و بتداخل أحداث أخرى يصبح جزءا من الأرشيف.
أما الشق الثاني يتطلب وقت و دراسة، فبعدما يتخلص من تصوير اللحظة، ينتقل إلى مرحلة التحليل و البحث الميداني المعمق، و أحيانا يتجه للاستعانة بالأرشيف المتوفر، و في هذه الحالة سيأخذ العمل عدة أبعاد، ويمكن له أن يتفتح على عدة أنواع السياسي، الاجتماعي أو الشاعري، و هنا استشهد "عبيدو" بتجربة مصر و تونس، التي نتج عن مواكبة مخرجيها للثورات و الأحداث عدد من الأفلام الوثائقية التي تناولت تفاصيل هامة و دقيقة قدمت أعمالا سينمائية فنية تعدت الطرح الدعائي المباشر و السطحي للوقائع التي دخلت التاريخ.

و يبقى الأكيد أن ثورات الربيع العربي شكلت فضاءا خصبا لكل سينمائي مبدع همه الوحيد تقديم قصة واقعية و فرجة سينمائية هادفة و نقل الحقائق والوقائع الإنسانية بكل تفاصيلها، بصالحها و طالحها، و بدقتها للأجيال التي ستقرأ التاريخ سينمائيا بطريقة وثائقية لا تغليط فيها ولا تضليل في مصداقيتها.